في مجال آخر يتحدث فلسطيني جبرا عن ابناء شعبه قائلا « انهم في الواقع تجار . لقد اقفلوا قلوبهم عن الشعر ، وانصرفوا الى التجارة . وانا كما ترى واحد منهم . امضي في سبيل القرش الف ميل » . ان تعبير البطل عن فئته الاجتماعية ، وخضوعه لقوانينها ، أمر لا يحتمل المراوغة . اما التساؤل فيما اذ كان المؤلف يتبنى هذا النموذج ام لا ، فانه ليس واردا . فاذا كان في وعي المؤلف ان يفضح هذه الفئة ويدينها ، فما هكذا يكون الفضح والادانة . فقد تبدى عطفه واضحا وصارخا على هذا النموذج ، عند تعريفه بطفولته . وهذه الطفولة هي في تقدير المؤلف : زمان فلسطين . لذلك فان القارىء سيكون مدعوا لقراءة صفحات طويلة يفردها المؤلف ، بأسلوب الذكريات الفصيح الباعث على الشجون والشكوى ، عن أيام البطل في القدس . هكذا تصبح الطفولة : ورقة براءة . وفي ذات الوقت فان العودة الى الطفولة مستحيل. هذا هو العقل الاحتيالي للبطل . ان وديع عساف نموذج الفلسطيني الارستقراطي . النموذج الذي اسقطته الهزيمة الاولى . وقد شاء المؤلف ان يبعثه من قبر التاريخ المردم ، عبر رواية تتضمن مقطوعات انشائية فالتة ومواقف مفتعلة ، ونحن نشيح بنظرنا عن هذا النموذج الذي يسرق شرفا لا يدعيه ، وتهمة لا ينكرها .

بين جدارة وشاعرية « عرس فلسطيني » وادعاء وغرور « السفينة » ، يقع تواضع « ذكرى الايام الماضية » . تواضعها واحيانا تقشفها واحيانا بساطتها واحيانا سذاجتها . تتكرر في هذه القصص لرشاد ابو شاور عبارات مثل « الجيوش هزمت ، فهل يمكن ان يصحو هؤلاء الشباب فيصفون المعجزة » . (الصوت والصدى) . « .. ولكن عند العصر ظهرت طائراتهم .. وتقهقرنا .. وكانت عيوننا تتجه الى السماء .. وقلوبنا تصرخ ، اين انت يا طائراتنا ؟ ولكن.. » . (الشوق والنداء). « آه يا صديقي عباس لم يكتمل الحلم ، تهاوى حين اعلن وقف القتال قبل وصولنا » (عودة الغريب) . « تناولت المذياع من حافة النافذة .. احدهم يرافقه ضجيج آلات محمومة يصرخ بحب الوطن والله والحرب » . (ذكريات حزيران) . « .. وهل حدثت الحرب يا رجل ؟. مثل غيرك ، كنت تجتر احلام العودة الى قريتك ، هناك ، حيث دفن والدك ، وجدك .. تلك كانت نكتة سمجة ». (زمن النابالم) .

وفي سبيل الرد على الهزيمة التي ولدتها « النكتة السمجة » ، يختار ابو شاور ابطاله فدائيين ليصفوا « المعجزة » . وعبر هذا التبني الاخلاقي — الاحادي ، تبدو النماذج التي اختارها المؤلف لتملأ خانة الفداء : غير مترددة وحاسمة ، بعد ان قطعت كل صلاتها مع ماضي التشرد والنفي . وهذا ما قاد المؤلف الى اختيار نهايات متفائلة ، مفعمة بالتبشير ، كمردود وثمن طبيعي ومنطقي للهوى الاخلاقي الذي يعصف به : « انه الشوق المعتق .. لقد بدأنا ، ولن ننكفىء .. عيوننا شاخصة الى الغرب .. الى البيت يا ملاكي » . (الجرح لا يساوم) . « تتحرك ، وتكتشف ان القوة ما زالت تنبض في عروقك .. تسير .. تسير .. الى الغرب » . (زمن النابالم) . « انه المخاض يا ارض الدم الحزينة . استيقظي ايتها الاجساد الطعينة . الاحفاد يأتون » . (الاحفاد يأتون) . « وتصاعدت في الليل اصوات افعال الرجال الصامتين بدوي هائل » . (اشياء فلسطينية) . « لا يهمني ان اموت ، المهم ان يصلوا ، ان تدوي الانفجارات غدا .. امطروه بوابل من الرصاص ، فسره انهم يركزون باتجاهه فاسحين المجال لرفاقه بالاستمرار الى هدفهم ، الذي كان يقترب كلما ساروا » . (عودة الغريب). مقابل ذلك يلمس القارىء موهبة الكاتب العميقة في قصة « ذكرى الايام الماضية » الحلقة الوحيدة في المجموعة التي تربط بين النضال قبل هزيمة ٤٨ والنضال الراهن . حيث نتعرف على نموذج الفلسطيني الذي يقف اعزل من السلاح ، بينما تحول القيادات الاقطاعية المرتبطة بالاوضاع العربية آنذاك من ممارسة دوره . لكنه يحصل على السلاح بالعنف ويستشهد ، اما طفله فقد شب وحمل بندقية في غزة. وفي قصة اخرى (العصافير) يبرع المؤلف في توظيف لحظة نفسية دقيقة لخدمة فكرة شعرية تلح على وجدانه : فدائي شرق النهر يصر على دفن عصفور جريح غرب النهر . بينما في القصة الاخيرة (بنادق عتيقة) ينبىء بخروج الجماهير الفلسطينية عن الوصاية : كان زواج العم (من الام) اكذوبة !. وابطال رشاد ابو شاور مليئون بالاصرار والحمية على تحرير الام من آلامها . تارة يقنعوننا وتارة لا نصدق .

محمود الريماوي